(وقفات مع آية الدَين)

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمَدُه ونستعينُه ونستهدِيه، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أنفسِنا وسيِّئاتِ أعمالِنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُه، صلّى اللهُ عليه وعلى آلِه وأصحابِه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمّا بعدُ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ:

من شُمولِ هذا الدِّينِ ومِن رَحمَتِهِ أنْ شَمِلَ جميعَ جوانبِ الحياةِ، فكما اهتمَّ دِينُنا بالعباداتِ مِن صلاةٍ وصومٍ وحجٍّ، شَمِلَتِ العنايةُ أيضًا بحياةِ النَّاسِ ومُعاملاتِهِم، وجاءَ في كتابِ اللهِ وفي سُنَّةِ رسولِهِ ﷺ ما يضمنُ الحقوقَ وينظِّمُ المعاملاتِ ويحفظُها، فقد بَيَّنَتِ الشَّريعةُ أحكامَ البيعِ والشِّراءِ، وإنظارِ المعْسِرِ، والوصيةِ في السَّفرِ وفي الحَضَرِ، وأحكامَ المواريثِ وغيرَها الكثيرَ.

ومن أحكامِ المعاملاتِ التي بيَّنَتْها لنا شريعةُ الإسلامِ أحكامُ الدَّينِ والمدايَنَةِ.

عِبَادَ اللهِ: النَّاسُ فيهمُ الغَنِيُّ القادرُ، وفيهمُ الفقيرُ المحتاجُ، والمالُ مالُ اللهِ تعالى، جَعَلَ في حركتِهِ ودَوَرَانِهِ بينَ النَّاسِ حِكَمًا، ورتَّبَ عليهِ أجورًا.

ولما كانَ المالُ أمرًا يُحتاجُ إليهِ، وقد لا يجدُهُ البعضُ ولا يمتلِكُهُ، حثَّ سبحانهُ على إقراضِ المحتاجِ وتفريجِ كُربتِهِ، والتيسيرِ على المعْسِرِ وإنظارِهِ، ورغَّبَ الغنيَّ في تفريجِ كُربتِهِ وسدّ حاجتِهِ، وعَدّ المقرِضَ كالمنفِقِ نصفَ ما أقرضَ، روى ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ" :"ما مِن مُسلِمٍ يُقرضُ مُسلِمًا قرضًا مرتينِ إلَّا كانَ كصَدَقَتِها مرة" أخرجه ابنُ ماجَهْ

أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ: وفي أطولِ آيةٍ في كتابِ اللهِ تعالى يتولَّى اللهُ بنفسِهِ تعليمَ أهلِ الأموالِ كيفيةَ حفظِ أموالِهِم، وضمانَ حقوقِهِم حالَ الإقراضِ والمدايَنَةِ والبيعِ لأَجَل، وقد بَيَّنَ اللهُ ذلكَ بأعلى بيانٍ، وبأسهلِ طريقةٍ، وأضمنِ كيفيةٍ، فخاطبَ أولًا أهلَ الإيمانِ بذلكَ، فقالَ تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ)، فهذا نداءٌ من الرَّبِّ سبحانهُ لعبادِهِ المؤمنينَ بأمرٍ هوَ خيرٌ

لهم، ولذا يقولُ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضي الله عنه" :إذا سَمِعْتُمْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ، فإنَّما هوَ أمْرٌ يأمرُكَ اللهُ بهِ، أو نَهيٌ ينهاكَ اللهُ عنه.

وهذا النِّداءُ يحملُ إرشادًا منهُ سبحانهُ وحثًّا بقولِهِ:(فَاكْتُبُوهُ).

وفي كتابةِ الدُّيونِ حِفظًا للحقوقِ، ودفعًا للنِّزاعِ والطَّمَعِ، ولذا أمرَ اللهُ بتدوينِها وكتابتِها دَرْءًا للمفاسدِ وابتِعادًا عن الخلافات، وكم هيَ المفاسدُ والشَّكاوى والدَّعاوى بسببِ تركِ الإرشادِ القرآنيّ والتوجيهِ الرَّبانيّ بكتابةِ الدُّيونِ وتوثيقِها، لأن أحوالُ النَّاسِ تتغيَّرُ وتضطربُ، فيعرضُ عليهم النِّسيانُ، وقد يأخذُهُم الطمعُ فيكونُ الجحودُ والنُّكرانُ وأكلٌ لأموالِ النَّاسِ بالباطلِ، وقد يتساهلُ أناسٌ في السَّدادِ والوفاءِ، كما قد تُصيبُ آخرينَ مصيبةُ الموتِ، ويضيعُ المالُ بينَ الورثةِ بينَ مُصَدِّقٍ ومُكَذِّبٍ.

ولهذا اسْتُحِبَّ للمسلمِ كتابةُ الدُّيونِ وتوثيقُها عملًا بقولِ اللهِ تعالى :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ

مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ)، وقد تَجِبُ الكتابةُ عندَ غلبةِ الظَّنِّ بالخُصومةِ والنِّزاعِ وضياعِ الحقوقِ، وفي الكتابةِ دفعًا للشَّكِّ والرَّيْبِ والنِّسيانِ، واللهُ يقولُ في بيانِ حكمةِ الكتابةِ والإشهادِ: (وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا).

أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ، ليسَ للتَّحَرُّجِ في كتابةِ الدُّيونِ أيُّ مكانٍ، وليسَ للمُجامَلَةِ في التوثيقِ أيُّ داعٍ؛ وذلكَ بعدَ أمرِ اللهِ تعالى وإرشادِهِ، فكم هيَ الخُصوماتُ بينَ الأصدقاءِ، وبينَ الإخوةِ والأقاربِ بسببِ الخلافاتِ الماليَّةِ التي نَشَأَتْ بسببِ تركِ كتابةِ وتوثيقِ الدُّيونِ والمعاملاتِ الماليَّةِ.

يقولُ الشَّافعيُّ رحمه الله:

لا يَكُنْ ظَنُّكَ إِلَّا سَيِّئًا *** إِنَّ سُوءَ الظَّنِّ مِنْ أَقْوَى الفِطَن

مَا رَمَى الْإِنْسَانَ فِي مَخْمَصَةٍ *** غَيْرُ حُسْنِ الظَّنِّ وَالْقَوْلِ الْحَسَن

فلو أنَّ النَّاسَ عَمِلَتْ بكتابِ اللهِ وبسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ لكانَ فيهِ غِنْيَةٌ لهم وطُمَأْنينةٌ.

ولـيعلَمِ المـؤمنُ أنَّ كتابـةَ الـدُّيونِ وتوثيقَهـا مـنَ العبـاداتِ الـتي يُـؤجَرُ العبـدُ عليهـا، لأنـهُ اسـتجابَ لنـداءِ الـرَّبِّ سـبحانهُ وعمِلَ بأمرِهِ. فما أحسنَ أمرَ اللهِ وحُكمَهُ وشَرْعَهُ.

وعلـى المسـلمِ أنْ يقـومَ بكـلِّ مـا يحفـظُ حقَّـهُ ويضـمنُ مالَـهُ وسِـلعَتَهُ، ومـن ذلـكَ الاهتمـامُ بحفـظِ المبايعـاتِ والفـواتيرِ والإيصالاتِ والسَّنَدَاتِ.

أَيُّهَـا الْكِـرَامُ.. وإذا حـلَّ موعـدُ سـدادِ الـدَّينِ، وحـانَ الأجـلُ المسَـمَّى بـينَ الطـرفينِ، وَجَـبَ الوفـاءُ بـلا مُماطَلَـةٍ ولا بَخْـسٍ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُود)

وهـل جـزاءُ مَـن فَـرَّجَ كُربتَـكَ، ونَفَّـسَ همَّـكَ، إلَّا المبـادَرَةُ بالوفاءِ والسَّدادِ وتركُ المماطَلَةِ والتخفّي والجحودِ؟ !

ولـنعلَمَ أنَّ اللهَ سـبحانهُ عـالمٌ بنيَّـاتِ النَّـاسِ عنـدَ أخـذِها مـن النَّـاسِ واسـتدانتِهم، قـالَ ﷺ: "مَـنْ أَخَـذَ أَمْـوَالَ النَّـاسِ يُرِيـدُ أَدَاءَهَـا أَدَّى اللَّهُ عَنْـهُ، وَمَـنْ أَخَـذَهَا يُرِيـدُ إِتْلافَهَـا أَتْلَفَـهُ اللَّه"

رواه البخاريُّ

أما من حَلَّ عليهِ الوفاءُ، وكانَ مُعْسِرًا لا يستطيعُ السَّدادَ، وفيهِ نِيَّةُ الوفاءِ، فلْيُبشِرْ بعونِ اللهِ وتفريجِهِ.

وعلى الدَّائِنِ والمقْرِضِ أنْ يتذكَّرَ قولَ اللهِ تعالى في بيانِ فضلِ إنظارِ المعْسِرِ، (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ).

والإعسار ليسَ ذنبًا يستوجبُ العقوبةَ، إنَّما هوَ ابتلاءٌ من اللهِ تعالى، قالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ" :"مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَة" رواه أحمدُ وابنُ ماجَهْ

ومنَ الخيرِ لمن وسَّعَ اللهُ عليهِ وأغناهُ، أنْ يضعَ من الدَّينِ بعضَهُ أو كلَّهُ صدقةً وتيسيرًا على المعْسِرِ، كما قالَ جلَّ وعلا: (وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

وجاء عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ :قالَ ﷺ" :كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا، فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْه". متفق عليه

أقولُ قولي هذا، وأستغفِرُ اللهَ لي ولكم، فاستغفِروه؛ إنَّه هو الغفورُ الرحيمُ.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ، وعلى آلِه وصحبِه ومَن اهتدى بهداه.

أمّا بعدُ، عبادَ اللهِ:

فإنَّ المؤمنَ الحَصِيفَ، المشْفِقَ على نفسِهِ، يسعى جاهدًا على أنْ يلقى ربَّهُ بريءَ الذِّمَّةِ، غيرَ مُتَوَرِّطٍ بحقٍّ ولا مَظْلَمَةٍ ولا مالٍ، لأنَّهُ يُوقِنُ أنَّ الحسابَ عظيمٌ، والموقفَ جليلٌ بينَ يَدَيْ رَبِّ الأرضِ والسماءِ.

ولقد تساهلَ البعضُ في الدُّيونِ والاقتراضِ دونَ حاجةٍ مُلِحَّةٍ، أو فاقةٍ تُرفَعُ، إنَّما لأجلِ السَّفرِ أو المبالَغَةِ في المناسباتِ، أو شراءِ الكمالياتِ وإظهارِ الزينةِ والتحسيناتِ.

ومن أعظمِ ما يَشغَلُ ذِمَّةَ المؤمنِ، ويُثْقِلُ كاهلَهُ يومَ القيامةِ الدَّيْنُ، فقد بَيَّنَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ الدَّيْنَ لا يُغفَرُ مهما بَلَغَ صلاحُ المؤمنِ، ولو قُتِلَ شهيدًا في سبيلِ اللهِ صابرًا مُحتسبًا مُقبِلًا غيرَ مُدْبِرٍ.

وكانَ النَّبيُّ ﷺ يستعيذُ باللهِ من الدَّيْنِ .فقالَ لهُ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ، ما أكثرَ ما تستعيذُ من المَغْرَمِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "إنَّ الرَّجُلَ إذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ" متفقٌ عليهِ

ومن دُعائِهِ ﷺ: "اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ" رواه البخاريُّ

ومن أثقلتْهُ الدُّيونُ، وعلتْهُ الهمومُ، وعَجَزَ عن أدائِها، فعليهِ بالإقبالِ على اللهِ وكثرةِ الاستغفارِ وحُسنِ الظَّنِّ في اللهِ، فعن عليٍّ رضي الله عنه، أن مُكاتَبًا جاءَهُ فقال: إنِّي قد عَجَزْتُ عَن مُكاتَبَتِي فأَعِنِّي، قالَ" :ألا أُعلِّمُكَ كَلِماتٍ عَلَّمَنِيهِنَّ رسولُ اللهِ ﷺ لو كانَ عَلَيْكَ مِثلُ جَبَلِ صِيْرٍ دَيْنًا أدَّاهُ اللهُ عَنْكَ؟، قال: قُلْ" :اللَّهُمَّ اكفني بِحلالِكَ عَن حرامِكَ، وأغنِني بِفَضلِكَ عَمن سِواكَ".
رواه الترمذي